تموز 2026 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية العدد 14
July 2026 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences No. 14
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

المقابر الاسلامية في مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب خلال القرن الرابع الهجري

م.م. سيناء علي بريج جاسم
ماجستير تاريخ اسلامي
مديرية تربية واسط
Sinaaali227@gmail.com

مستخلص:
تتناول "الدراسة الحالية" المقابر الإسلامية كظاهرة حضارية وعمرانية من خلال مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب خلال القرن الرابع الهجري يهدف البحث إلى رصد أهم الإشارات المتعلقة بالمقابر والمزارات والأضرحة، وتحليل وظائفها الدينية والاجتماعية والعمرانية تسلط الدراسة الضوء على تطور مسميات القبر في أدبيات تلك الفترة، وأهمية الدفن كحق إنساني واجتماعي، فضلاً عن استعراض النماذج الجنائزية في أقاليم الدولة الإسلامية كالعراق ومصر وبلاد المغرب وتخلص الدراسة إلى أن المقابر كانت تمثل جزءاً حيوياً من البنية العمرانية للمدن الإسلامية، حيث انعكست فيها التوجهات الفقهية والتنظيمات الإدارية للسلطة الحاكمة، إلى جانب الممارسات الشعبية المرتبطة بالزيارة والتبرك تعتمد الدراسة منهجاً تحليلياً يربط بين النصوص الجغرافية، والنوازل الفقهية، والشواهد الأثرية والنقوش الجنائزية، لإعادة بناء المشهد الجنائزي في العالم الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري كجانب حضاري فاعل وليس مجرد مرفق لدفن الموتى

الكلمات المفتاحية: المقابر الإسلامية، الجغرافيين والرحالة، القرن الرابع الهجري

Islamic cemeteries in the writings of Arab geographers and travelers during the fourth century AH

Assistant Lecturer: Sinaa Ali Breij Jassim
Master's Degree in Islamic History
Wasit Education Directorate

Abstract:
This study examines Islamic cemeteries as a cultural and architectural phenomenon through the writings of Arab geographers and travelers during the 4th century AH. The research aims to identify the most significant references to cemeteries, shrines, and mausoleums, and to analyze their religious, social, and architectural functions. The study sheds light on the evolution of grave terminology in the literature of that period, the importance of burial as a human and social right, and funerary models in various regions of the Islamic state, such as Iraq, Egypt, and North Africa. The study concludes that cemeteries constituted a vital part of the urban fabric of Islamic cities, reflecting the jurisprudential orientations and administrative structures of the ruling authority, as well as popular practices related to visitation and seeking blessings. The study employs an analytical methodology that connects geographical texts, legal opinions, archaeological evidence, and funerary inscriptions to reconstruct the funerary landscape in the Islamic world during the 4th century AH as an active cultural aspect, not merely a facility for burying the dead.

Keywords: Islamic cemeteries, geographers and travelers, 4th century AH

المقدمة:

تعد المقابر مرفقاً مهماً، يفي بحاجات الناس الجماعية في كل المجتمعات الإنسانية، وعلى مر العصور التاريخية ومثلما توجد علاقة بين القبر والعالم الآخر حسب المعتقدات الدينية المختلفة - فالصلة وثيقة أيضًا بين القبر والحياة، وهو ما تعكسه كثير من تصورات الأحياء، وممارساتهم الاجتماعية والثقافية والذهنية، وفقًا لما يتوارثونه من منظومة القيم الدينية والاجتماعية، التي صاحبت قناعاتهم ورؤاهم، وهو ما ينطبق على ساكنة إفريقية خلال العصر الوسيط، التي ارتبطت بالمقابر في كل تفاصيل حياتها الاجتماعية والاقتصادية وجانب من حياتها العلمية والدينية والسياسية فضلا عن معتقداتها التي صاغت عقليتها وانعكست على سلوكياتها (الدومي، 2021، صفحة 627).

وتُعدُّ المقابر الإسلامية من أهم الشواهد الحضارية التي تعكس جوانب متعددة من الحياة الدينية والاجتماعية والعمرانية في الحضارة الإسلامية، إذ لم تكن مجرد أماكن لدفن الموتى، بل ارتبطت بمظاهر دينية وثقافية واجتماعية متنوعة، وأسهمت في تشكيل المشهد العمراني للمدن الإسلامية عبر العصور وقد حظيت المقابر والمزارات والأضرحة باهتمام واسع في المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الرحلات، حيث حرص الجغرافيون والرحالة العرب والمسلمون على تسجيل أوصافها وتحديد مواقعها وبيان ما ارتبط بها من عادات وتقاليد وممارسات دينية واجتماعية.

ويُعَدُّ القرن الرابع الهجري من أبرز العصور التي ازدهرت فيها الكتابات الجغرافية والرحلية في العالم الإسلامي، إذ شهد ظهور عدد كبير من الجغرافيين والرحالة الذين جابوا أقاليم الدولة الإسلامية وسجلوا مشاهداتهم بدقة، معتمدين في كثير من الأحيان على المعاينة المباشرة والمشاهدة الشخصية وقد أسهم هؤلاء العلماء والرحالة في تقديم صورة واضحة للمدن الإسلامية ومعالمها المختلفة، بما في ذلك المقابر والمشاهد الجنائزية والأضرحة والمزارات التي كانت تمثل جزءاً مهماً من البنية العمرانية والدينية للمجتمعات الإسلامية آنذاك.

وتبرز أهمية دراسة المقابر الإسلامية في مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب خلال القرن الرابع الهجري في كونها تسلط الضوء على جانب حضاري مهم لم يحظ بالدراسة الكافية مقارنة بالدراسات السياسية أو الاقتصادية، كما تساعد في الكشف عن طبيعة النظرة الإسلامية للموت والدفن، وتوضح مكانة المزارات والمشاهد في الحياة الدينية والاجتماعية، فضلاً عن إسهامها في فهم التخطيط العمراني للمدن الإسلامية وتطور العمارة الجنائزية فيها.

كما تمثل مؤلفات الجغرافيين والرحالة مصدراً تاريخياً مهماً لدراسة المقابر الإسلامية؛ لما تتضمنه من أوصاف مباشرة للمدن والمعالم والمزارات والمشاهد الدينية، إضافة إلى ما تنقله من معلومات تتعلق بعادات زيارة القبور وأماكن دفن الشخصيات البارزة من العلماء والأولياء والحكام، الأمر الذي يجعل هذه المؤلفات مادة علمية ثرية يمكن من خلالها إعادة بناء صورة واضحة للمشهد الجنائزي في العالم الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري وقد تميزت كتابات جغرافيي ذلك العصر باعتمادها على المشاهدة والرحلة والوصف التفصيلي للبلدان ومعالمها المختلفة.

ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى دراسة المقابر الإسلامية كما وردت في مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب خلال القرن الرابع الهجري، من خلال رصد أهم الإشارات المتعلقة بالمقابر والمزارات والأضرحة، وتحليل أوصافها ووظائفها الدينية والاجتماعية والعمرانية، مع إبراز ما تعكسه هذه النصوص من مظاهر حضارية وثقافية، بما يسهم في إثراء الدراسات المتعلقة بالتاريخ الحضاري والعمارة الجنائزية في الحضارة الإسلامية.

أولاً: مسميات القبر المتداولة في أدبيات الفترة:

زخرت مصادر الفترة بعديد من المعاني والمترادفات الدالة على مكان دفن الإنسان منها ما يشير إلى جزء من القبر - لكنه استعمل للدلالة على القبر كله - فضلا عن ألفاظ أخرى استخدمت للإشارة إلى مكونات القبر على الجملة، في حين دلت ألفاظ أخرى على مكان تجمع القبور وهو ما يمكن أن يفيد في تصور تطور المقابر كأحد أهم تكوينات المدينة الإسلامية. فمن المعاني الدالة على جزء من القبر: اللحد (المالكي، 1994، الصفحات

114-146)، وهو الشق الذي يحفر في جانب القبر لوضع الميت، والجمع ألحاد ولحود (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 388)، ومما يأتي في معناه أيضًا: الحفير (المالكي، 1994، صفحة 512)، وهو ما يدل على استخدام أدوات حادة في حفر الأرض (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 204)، ورد كذلك لفظ التربة (الفارسي، 1959، صفحة 174)، و تُرْبةُ الإنسان : رَمْسُه "، أي ترابقبره "، الذي يهالعليه بعد الحفر والدفن"، "ورمستُ المَيّتَ وَأَرْمَسْتَه : دَفَنْتُهُ. وَرَمَسُوا قَبْرَ فُلَانٍ إذا كَتَمُوهُ وسَوَّوْه مَعَ الأَرض" ورغم أن لفظ الصعيد يعني في لغة العرب: التراب أو الأرض المستوية أو وجه الأرض، إلا أنه أستخدم أيضا للدلالة على التراب ذي الغبار، وعلى الأرض الخربة التي لا شجر فيها (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 253)، ويبدو أن ذلك هو ما دفع أهل إفريقية إلى استخدامه على نطاق ضيق للدلالة على قبر الميت (المازري، 2008، صفحة 287) أما الضريح ": فهو الشق في وسط القبر (الوسياني، 2009، صفحة 352)، ورغم أن البعض أطلق لفظ الضريح على القبر كله، إلا أنآخرين أطلقوه فقط على القبر بدون لحد (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 526).

استخدمت ألفاظ أخرى للإشارة إلى مكونات القبر جملة، ومنها: الأجداث وهي الأجداف أي القبور، أما اللفظ الذي كان أكثر تداولا فهو: القبر (الدباغ، 1968، الصفحات 99-100) وهو مدفن الإنسان، وجمعه قبور ومما دل على مكان تجمع القبور، لفظ الجبانة والجبان (القاضي النعمان، 1986، صفحة 316)، والجبانة تعني:

الصحراء، وما استوى من الأرض ولا شجر فيه، وتسمى بهما المقابر لكونها في الصحراء غالبا "تسمية للشيء بموضعه (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 85) وجمعها الحبابين، أو " الجبانات" (الونشريسي، 1981، صفحة 499) أما إذا كان المكان الذي يشتمل على المقابر متسعا ويحوي شجرًا فيسمى: البقيع، وهو من الألفاظ التي استخدمت على نطاق ضيق عند المغاربة للدلالة على مكان تجمع القبور، وربما كان ذلك أسوة بمقبرة المدينة المنورة التي عرفت ببقيع الغرقد؛ لأنه كان بها غرقد وقطع، وهو نوع من شجر العضاة وشجر الشوك .. أما اللفظ الأكثر شيوعًا للدلالة على موضع القبور (البرزلي، 2002، صفحة 384)، فهو: المقبرة أو المقبرة العظمى، وهو من الأوصاف التي وصفت بها مقبرة باب سلم بالقيروان المعروفة بمقبرة قريش؛ مما يشي بالأعداد العظيمة، التي دفنت بها من العلماء والصالحين وعامة الناس الذين "لا يحصيهم إلا الله عز وجل.

وفي سياق آخر استخدم بعض صلحاء إفريقية لفظ "الجادة" للدلالة على القبر، كنهاية محتومة ولابد منها لحياة جميع البشر، انطلاقا من كونها تعني: الطريق الأعظم الذي يجمع الطرق ولابد من المرور عليه (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 109).

ثانياً: أهمية الدفن وشكل القبر وبناؤه:

يمكن أن نلمس أهمية الدفن عند مختلف أصحاب المذاهب من كونه أهم حق من حقوق الأموات (ابن عبدون، 1955، صفحة 26) على الإطلاق؛ فصيانة الجسد بدفنه ضرورة لابد منها حسب الاعتقاد السائد لأن حرمة المسلمين موتى كحرمتهم أحياء، يضاف إلى ذلك أن القبر يعد أحد دلائل إثبات حالة الشخص من حيث الحياة أو الموت (بن سحنون، 2000، صفحة 105)، وما يترتب على ذلك الإثبات من حقوق الزوجية والميراث والمعاملات وغيرها، ناهيك عما يورثه غياب الجثة وانعدام قبر يحوطها ويصون حرمتها من مرارة وحيرة لدى أهل المفقود، وهو ما تعبر عنه حالة أبي العباس فضل بن نصر التاهرتي (ت ٣٤٤هـ / ٩٥٥م) الذي فقد ابنه واختلفت عليه الأخبار، فلم يتيقن من كونه حي أو ميت أو مقتول أو غريق؛ مما أورثه حزنًا وحيرة فأنشد أبياتا يعبر فيها عن حالته متمنيا لو قبر ابنه حتى يتسنى له الصبر والاحتساب والأجر (المالكي، 1994، صفحة 121).

ومن هذا المنطلق حرص الناس على دفن موتاهم، وإدراكا من بعض الساسة والعسكريين لتلك الأهمية فقد حرصوا على دفن أعدائهم، حتى لو كانوا مخالفين لهم مذهبيًا، ومن دلائل ذلك أن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (ت ٥١٤٤) زعيم الأباضية طلب من أهل القيروان إثر هزيمته لهم أن يخرجوا إلى قتلاهم

ليدفنوهم وهو ما ينطبق على مسلك أبي حاتم الملزوزي مع أهل طرابلس، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث منع جنده من سلب قتلى أهل طرابلس رعاية لحرمة أجسادهم، وهو ما يعد مبالغة واضحة من مؤرخي الأباضية لأن ذلك لم يكن معهودًا بين القوى المتصارعة سياسيًا ومذهبيا كما سيتضح لاحقا.

ونظرًا لأهمية المقابر كإحدى المنشآت العامة المهمة التي تفي بحاجات الناس الجماعية، يمكن التكهن في ظل غياب الإشارات - بأن السلطة الإسلامية الحاكمة في إفريقية خصصت أماكن بعينها للدفن بوجه عام، وربما تولت الإشراف عليها، وقبل ولوج تفاصيل بناء القبر وما طرأ عليه من إضافات على مدار الفترة المدروسة، يجب أن نعرض لأرض المقابر، التي تم تخصيصها أو حبسها للدفن، فقياسًا على إشارات متعلقة بمناطق أخرى من العالم الإسلامي يُفترض أن السلطة الحاكمة في إفريقية أثناء الفتوحالإسلامية، وخاصة بعد تأسيس القيروان كأول حاضرة إسلامية بإفريقية، وبعد تمام الفتح واستقرار أوضاع المسلمين قد قامت بتخصيص الأراضي الواقعة خارج أبواب المدن وصيرتها كمقابر عامة للدفن وانطلاقا من أن القبر في الأساس حبس كالمساجد والقناطر والطرق وغيرها من منافع المسلمين؛ فقد شارك أهل البر والخير في حبس الأرض للدفن (التسولي، 1998، صفحة 367) عامة، فتتواتر التفاصيل عن "عرصة محبسة للدفن"، و"مكان موقوف لدفن المسلمين"، و"فدان" محبس على الدفن فيه، وعمن "حبس أرضًا في فحيزت و احترمت بحرمة الأحباس " .. ومن أمثلة المقابر المحبسة من قبل الأفراد، مقبرة أجلو الغربية، التي كانت أرضها ملكا لأبي الحسن أفلح قاضي بني ورتيزلن وحبسها عام ٤٤١هـ / ١٠٤٩م، وكذا مقبرة الزلاج بقرية فوشانة القريبة من تونس، فهي تنسب للشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن تاج الدين (ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م) الذي حبسها لدفن موتى المسلمين فعرفت باسمه، ودفن بها عدد كبير من الفقهاء والصالحين والعباد.

أما عن شكل القبر وبنائه، فمن الثابت أن القبر كان يحفر غالبا لحظة الوفاة، وأن أهل الميت كانوا يشرفون بأنفسهم على حفره، وفي أحيان أخرى لجأ بعض الأفراد إلى إعداد قبورهم قبل وفاتهم (اللخمي، 2011، صفحة 712)، ويُرجح أن بناء القبر كان في البداية عبارة عن لحد بسيط، وأن الدفن كان وفق السنة النبوية المطهرة، ثم ظهرت بعض الأطر الفقهية التي تضبط إعداد القبر وبناءه، من ذلك التوصية بتعميق الحفر بقدر مناسب بحيث تستر جثة الميت ويمنع من ظهور روائحها، ولا يتيح للضواري من الحيوانات نبشها، وقد ظهر في الساحة الفقهية جدال حول طريقة حفر اللحد بين التسنيم والتسطيح، ففي الوقت الذي أجاز فيه اللخمي (ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥م) تربيع القبر وهو الزيادة على تسنيمه، كره آخرون ذلك وشددوا على ضرورة تسطيحه على أن يُرفع عن الأرض قليلا بقدر ما يُعرف به إلا أنه مع مرور الوقت وتطور العمران طرأ على القبر تغييرات عدة منها البناء عليه، وتخصيصه، واتخاذ الحيطان والسقائف والشواهد، وهو ما تثبته عديد من مسائل ونوازل الفترة حول كراهة تجصيص القبر (ابن منظور، 1414 هـ، صفحة 76) والبناء عليه، واتخاذ الشاهد والكتب فيه، فقد ناقش الفقهاء حكم البناء على القبر وتجصيصه ووضع الشاهد، فنهى بعض المالكية أن ترفع المقابر بطوب أو بحجارة أو تبنى فيها حوائط أو تجصص أي تبيض بالجير أو التراب الأبيض، في حين أجاز بعضهم البناء إذا كانت مقابر خاصة في ملك أصحابها (العقباني ، 1967، صفحة 77)، أما إن كانت مقابر عامة فلم يجيزوا ذلك خشية التضييق على الناس، ومن ثم جاءت فتوى ابن رشد ت ٥٥٢٠ / ١١٢٦م) بهدم ما بني فوق مقابر المسلمين من القباب والسقائف والروضات، ولا يبقى من جدرانها إلا ما يميز به الرجل قبر قريبه؛ كي لا يأتي آخر ليدفن فيه، أما إن بنيت تلك المقابر في ملك صاحب القبر، فحكمها حكم الدور، إن كان لا يأوي إليها أهل الفساد، وهو نفسه ما أفتى به الفقيه المازري (ت ٥٣٦هـ / ١١٤٢م).

ثالثاً: نماذج من صيغ شواهد القبور اللاتينية ببلاد المغرب القديم:

إن مكانة الأموات بين الاحياء في الحضارات القديمة، من بينها بلاد المغرب القديم التي هي جزء منه، تم تحديد مختلف مراحلها، بدءا من طقوس الدفن إلى نقش عبارات الرثاء، وطلب الدعاء من الاحياء بعبارات شائعة، نجدها تتكرر كثيرا على الشواهد الجنائزية مثل "ليكون الثرى خفيفا عليك - Sit tibi terra leweis، أو العبارة الوثنية التي تعني " يرتاح والصيغة المسيحية التي ترمز للراحة الأبدية" hic situs est هنا despositus"، وفي نفس المعنى نجد صيغة ترمز لنفس المعنى لدى المسيحيين والتي تعني الذهاب للراحة

الأبدية " in pace positus" والغرض من كل المراثي ليس إعادة الموتى إلى الحياة الدنيوية، بل الأمر قد يكون أقرب إلى استحضار أرواحهم بين الأحياء، والحفاظ على ذاكرتهم والدعاء لهم لبلوغ العالم الآخر، ولذلك كانت نصوص السجلات التي تناولت النقوش الجنائزية اللاتينية ببلاد المغرب القديم، ومضامينها جعلتنا نقف أمام نوع من الإتفاق المسبق الذي مفادها أن الميت يمكن له أن يتحدث إلى الأحياء من أفراد أسرته، أو أي شخص مار بجانب قبره ووقف امام نص نقيشة شاهد قبره، كما كان للأحياء من أهل الميت الحق في مخاطبة ميتهم، والتباهي بخصاله، ونشاطه في الحياة.

توجد مجموعة من النقوش الجنائزية وردت بلسان حال الأموات مثلما كشفت عنه إحدى نصوص النقوش الجنائزية التي عثر عليها بموقع (كيرتا - Cirta) قسنطينة، يوضح ضمنها صاحب القبر أنه كان مصرفيا، وهو الذي كتب نص شاهد قبره في حياته، لكنه لا يستطيع الحديث بعد موته، مما يبين أنه قد استبق موته، و سيصبح عاجزا عن فعل أي شيء بعد موته، وانتشار ظاهرة انجاز المدافن في حياة الافراد (Griffe , 1997, pp. 15-25).

هذا واستخلصنا من مضامين بعض النقوش الجنائزية أن الأحياء كانوا يتباهون بأمواتهم من خلال صيغ مختلفة دونت على شواهد قبورهم، وما يلفت الانتباه في هذه الدراسة التي اعتمدنا فيها على نقوش جنائزية عثر عليها ببلاد المغرب القديم، أن أنواع المراثي المنقوشة على شواهد قبور الموتى تؤكد حالات الإتصال بين الموتى والأحياء عن طريق حوار أطلقنا عليه اسم "الحوار الصامت" الذي ورد بشكل منهجي، في صورة طلب، أو أمنية، أو نصيحة، أو ثناء موجه للأحياء، نرد نماذج منها التي توحي لراحة المتوفى داخل مدفنه، وذكر الموت على أنه راحة يستمتع ضمنها بحياة أخرى دون قلق، أو أنه يتمتع في الحدائق الإليزيه، وأنه يتمتع بحياته الأبدية، وأحيانا يناشد المارة الذين يقفون أمام قبره بالدعاء له، أو نصحه لهم بتشييد مدافنهم في حياتهم، كما عبروا من خلال شواهد قبور أطفالهم على نمط مخالف لما ذكروه على الموت على أنها خطفت، وظلمت أطفالهم في عز طفولتهم وشبابهم، كما لم تغفل نصوص شواهد القبور لذلك الحوار بين الزوج وزوجته، وللإخلاص بينهما، الذي انتهى بوجودهما بمدفن واحد لمواصلة الحياة في العالم الآخر بعد نفاد مدة وجودهما في العالم الدنيوي، وذلك ما سنفصل فيه من خلال نماذج من صيغ المراثي التي نقشت على شواهد قبور وجدت ببلاد المغرب القديم، ومن بينها:

أ- صيغة: "الموت راحة وأمان":

إحتوت نصوص النقوش الجنائزية على عبارات تدل على راحة الميت داخل قبره وغالبا ما استخدمت لدى الوثنيين عبارة " يرتاح أو ترتاح هنا Hic situs (a) est"، مقارنة مع العبارات المستعملة من طرف المسيحيين في العصر القديم التي تدل على الراحة الأبدية " depositus - a" لروح الميت.

ورد ضمن محتوى بعض النقوش اللاتينية ببلاد المغرب القديم عبارات تدل على راحة الميت داخل مدفنه و للموت أنها راحة له من قلق الدنيا فعلى سبيل الذكر لا الحصر عثر بالموقع الأثري المسمى (اسوراس Assuras) بمنطقة (زنفور) التابعة لولاية (الكاف) التونسية على نص نقيشة مدون عليها اسم المتوفى "بريموس - Primus" مخاطبا كل من يقع نظره على نصها بما يلي:

أرتاح، محروما من النور تحت عالم الأحياء، أنا الآن متأكد من راحتي، أنا (Wilmanns.G, Mommsen. Th, 1881, "...في مأمن من مخاطر الحياة (CIL, VIII,16463 . ومن خلال نص نقيشة تعود لسنة 266م عثر عليها بمنطقة (Ibid, Auzia -أزيا((CIL VIII, 9170 التي تعرف اليوم بمدينة (سور الغزلان بالجزائر، الإستوقفتنا العبارة المنقوشة على شاهد قبرها :" ... بكل فرح أرتاح الآن.... "، وتتكرر مثل هذه العبارات في العديد من نقوش شواهد القبور، بصيغ تصب في معنى واحد منها التي نقشت على شاهد قبر بمدينة شرشال بالجزائر Caesarea قيصرية (Leveau , 1977, pp. 223-229)التي كانت عاصمة موريطانيا القيصرية أثناء الإحتلال الروماني، حيث يشار عليها لصاحبها الذي بلغ ثمانون عاما، بأنه يرتاح في قبره مستمتعا بنوم الموت المربح.

كما تضمن نوع آخر من الاهداءات على شواهد القبور العبارات تشير لاستقرار الأرواح التقية، فنجد مثالا عن ذلك من خلال إهداء لشاب ورع اسمه "فلافيوس نتاليس فيتوريانوس"، كان ملتزما بأداء الطقوس، ويذكر ضمن محتوى نص النقيشة أنه مرتاحا داخل قبره بدون قلق (Secure quiescis) ويطلب أن تقدم المأدبة الجنائزية على الأرواح الورعة(Gsell.S, 1922) .

إن الإيمان المشترك بالعالم الآخر بين الأحياء والاموات حسب نصوص شواهد القبور، يؤكد الطابع الإيجابي للموت في اعتقاد القدامى، ومن ناحية أخرى، لكن موضوع التحرر أو الراحة الذي يجلبه الموت بعد الحياة لم يستخدم كثيرا في المراثي المسيحية أثناء العصور القديمة، وغالبا ما كان يختصر بما يلي:

ترتاح هنا بعد الموت Hic iaccess extinctus "، لأن المسيحيين يركزون في صياغة نصوص شواهد قبور موتاهم على الحياة إلى جانب المسيح عليه السلام، ويعتقدون أن اسم المتوفى يصل بعالم النجوم الذي تخلد فيه روحه مثلما عبر عنه نص شاهد قبر العذراء " اوربيكا Urbica" Urbica, quod - المتوفاة بمدينة تيفست nomen semper in astra uiget Theveste "(CILVIII 27916) تبسة بالشرق الجزائري.

كما نجد ضمن نقيشة مسيحية لكاهن اسمه " فيتاليس Vitalis" تعود لسنة 545-546م عثر عليها بموقع (سفيتلة - Sufetula) سبيطلة بتونس، يذكر ضمن محتواها، أن هذا الكاهن عاش سبعون سنة، معبرا عن حالته الجديدة)Hic positus placida" , بما يلي: " ..... اليوم، أعرف الراحة(Merlin, 1944) 1946115 ، مما يؤكد انتشار اليقين بين الأحياء أثناء تلك الفترة بأن الأموات يرتاحون في بيتهم الجديد، الذي يقصدون به القبر بكل راحة بال التي يستحقونها" "in pace quiebit Hac sede Digna"

ب - صيغة : "الموت غير عادلة ومؤلمة"

وردت بعض الصيغ من المراثي تخفي من ورائها فاجعة الموت، ومدى التأثر بفقدان فرد من العائلة والاستثناء هذا، كان يخص حالات موت الأطفال التي استمر العمل بها حتى الفترة الوندالية ببلاد المغرب القديم (429 534م) مثلما نلمسه من الكلمة الأولى التي استُفتح بها نص النقيشة التي كتبتها أم على شاهد (Wolff ، 2000، الصفحات 299-303)- الطفلة المتوفاة " داميرا قبر ابنتها، حيث استهلت السطر الأول منها بعبارة مؤلمة ومحزنة، تدل على عمق حزن الأم على وفات ابنتها بقولها: " أه الألم - Heu dolor ".

هذا، وتم استخلاص من مضمون إحدى النصوص الجنائزية الوثنية ، أن الأب يرثي طفله، ويذكر أنه قد تعمد عدم كتابة اسمه، وعمره، لتفادي بقاء الحزن في قلوب أهله عند قراءتهم لاسمه ne dolor in memtem cum legimus maneat"، معبرا ضمن نص هذه النقيشة عن " انتصار الموت على الحياة "mors uitam uicit. (Lassere ، 1973، صفحة 142)

رابعاً: مؤلفات الجغرافيين العرب عن المقابر والشعائر الجنائزية في مصر القديمة:

مناظر الطقوس الجنائزية وهي تتعلق على الأخص بالميت الموضوع في مقبرته، ولما كان المتوفي في حاجة إلى مائدة قرابين مثقلة بأنواع المأكل والمشارب فإننا نرى مناظر عديدة للتضحية، فنرى الحيوانات وهم يحضرونها بعد الصيد، وهناك مناظر تمثل بعض الطقوس التي لا علاقة لها بمائدة القربان كحرق البخور أمام الكوه الموصلة للسرداب، وحرق البخور أمام التمثال أثناء نقله، وحرق البخور أمام المتوفي وهو جالس أو واقف . ثم مناظر طويلة تُرى فيها أملاك ممثلة في أشخاص ثم مواكب حملة القرابين (كمال، 1977، صفحة 148).

القرابين: Offering Tables

كان المصريون يترددون كثيراً على المساكن الأبدية، وذلك إما بدافع الرهبة أو بدافع التقوى فكان أهل الميت أبواه والأطفال والأرامل يصعدون إلى التل ويحضرن معهم الأطعمة، وقليلاً من الماء ليضعوها فوق مائدة القرابين بجوار اللوحة التذكارية ، أو بين شجر النخيل الذي يظل فناء المدخل ثم يرتلون الصلوات تلبية لرغبة المتوفيين، فيقولون : " ألوف من أرغفة الخبز وجرار من الجعة وطيور وشحوم ودهون وبخور وأقمشة وحبال وكل ما يجلبه الذيل من خيرات وما تنتجه الأرض وما يعيش منه الإله تقدمه لروح فلان المبرور المرحوم " وكان هم وحزن شديد يعتري أحياناً من يبتهل على قبر شخص عزيز عليه، وفي عهد الدولة

الوسطى كان الناس يؤثرون أن يكتبوا للميت على الأواني التي كانت تحوي الطعام المعد له ، وذلك ليكون أكثر اطمئناناً على أن الرسالة سوف لا تمر دون أن يطلع عليها ، ومن أمثلة هذه الرسائل تبليغ أحد الأجداد بأن هناك مكيدة الغرض منها حرمان حفيده من حقة في الميراث ، ويهم الميت أن يعترض على هذه المكايد وعليه إذن أن يستدعي أعضاء أسرته وأصدقائه لمساندة من يراد سلب حقه ، وإذا أن الأبن عندما يؤسس منزله فإنه يؤسس بيت آبائه ويحي اسمهم ، فإذا فقد أمواله فلعله يجلب الشقاء والتعاسة لأسلافه كما يجلبها أيضاً لذريته) .(١)

والقربان في عصور ما قبل التاريخ يتكون من رغيف موضوع على حصير مجدول، وأصبححصير القربان هذا (حتب)، والعلامة المكتوبة لكلمة قربان، وفي بداية الدولة القديمة حلت موائد القرابين من الحجر بدلاً من ذلك الحصير وكانت تلك الموائد تتخذ غالباً شكل علامة (حتب) أو تحمل مثل تلك العلامة في النحت الموجود على القمة، وقمة علامة (حتب) التي أرتبطت بالرغيف تواجه دائماً الشخص الذي يقدم القربان وحفرت بعض القنوات في المائدة من أجل السوائل المسكوبة كقربان، وغالباً ما تحدد أواني النبيذ بالنحت البارز على صفحة المائدة (مونتيه ، ب.ت، الصفحات 444-446).

كانت مقابر ما قبل الأسرات مغطاه بركام صخري يمكن أن توضع بجواره بعض القرابين البسيطة بينما الدولة القديمة أتخذ تقديم القرابين اليومية شكل الشعيرة الثابتة وهو ما اقتبس من تلك العقيدة الجنائزية الملكية، وبدءاً من الدولة الوسطى صار من الممكن أن تمارس طقوس الموت في المعبد القريب، وذلك بتقديم الأطعمة إلى تمثال للمتوفي في داخل المعبد ذاته، وهو ما ساعد على جعلها أكثر دواماً لأنها جنبت الكاهن مشقة الذهاب إلى المقبرة ليقدم القرابين، ثم تتطور هذا الاعتقاد حتى شمل المنحوتات والصور على جدران المقبرة فصار بوسع تلك المناظر أن تنهض بحاجات المتوفى، وهذا هو سبب الصور المتكررة لحملة القرابين ولصاحب المقبرة وهو يتناول وجبة فاخرة، وفي العصور القديمة عبء القيام بالأعمال التي قد يكلف بها المتوفي على كاهل مجموعة من التماثيل تعرف باسم شابتي (لوركر ، 2000، صفحة 217).

ووجود الأواني التي تحتوي على الطعام والشراب في مقابر عصور ما قبل التاريخ توضح لنا أن هذين العنصرين كانا يعتبران جوهرين لحياة و رافهية الميت، وأقدم وثيقة مكتوبة لدينا تؤكد أن الوجبة كانت تشكل أكبر الأجزاء أهمية في الطقس اليومي الجنائزي، وهذا أيضاً صحيح بالنسبة للقرابين والعطايا التي توهب للألهة، ولقد كان أي احتفال معبدي أو جنائزي يبدأ بصب المياه فوق أيدي الكهنة وحرق البخور وفي هذين الفعلين كان الكاهن يمثل المستفيد نفسه، وهذان الطقسان يسبقان أي وجبة طعام مصرية ، ثم بعد ذلك يقدم الميت او الإله الزيوت والدهون المعطرة ومناشف الأيدي، وفي النهاية يتم تبخيره، وكان صب الماء الذي يتبع ذلك يمثل ممارسة غسل الفم المعتاد قبيل كل وجبة، في حين أن الطعام كان يقدم بعد الإنتهاء من هذه المقدمة (تشرني، 1994، صفحة 134).

الهدف من تصوير الجنازات الطقسية على جدران المقابر :-

الهدف من هذه الجنازات تخليد الحياة التي كانت كائنة ، وكي تؤدي الغرض منها كقوة سحرية وهكذا ولرغبة الميت في الحياة الابدية فإنه يتمتع بممتلكاته الدنيويةbinom Upsilon . (لوركر ، ب.ت، صفحة 133)

وحيث يكشف التصوير الجنائزي على جدران المقابر عن خصوبة خيال الفنان المصري على الرغم من ضيق مساحة المقابر التي أدت إلى إقتصار النحت فيها على المشاهد الضرورية لتوفير الرافهية للمتوفي في العالم الآخر، غير أنها مشاهد تنبض بالحياة الحقيقية ، وتتجلى فيها براعة الفنان المصري في الجمع بين الموضوعات والفصل بينهما وتداخلها وتعارضها ، وإدخال أحداث جديدة غير متوقعة تمتلئ بالرقةr binom

والغرض من تماثيل المقابر هو ان تكون بديلاً من أجسام أصحابها إذا دب فيها الفناء وليس يذكي هذا الرأي اهتمام المصريين بوقاية جثث موتاهم وغلوهم في ذلك كثيراً ، فالأهرام الضخمة ، والمقابر المشيدة او المحفورة في الصخر إنما كانت لحفظ الجثث، ولم يكن التحنيط إلا وقايتها من الفناء والمحافظة على شكل الأجسام لأثر ذلك فيما بذلوه من جهود في بناء المقابر، وتحنيط الجثث في متون الأهرام ما يدل على أنهم كانو

يعتقدون أن للجسد وجودا ذاتياً مستقلاً بنفسه يرحب خلوده، وفي العصور المتأخرة كانت تتلى أثناء تحنيط الجثة العبارة التالية :-

" إنك ترى أسمك في جميع الأقاليم ، وروحك في السماء ، وجسدك في العالم السفلي وتماثيلك في المعابد " وفي ذلك ما يشير إلى أن تماثيل الموتى لم تكن تغني شيئاً عند جسده وروحه (شكري، ب.ت، صفحة 64).

مراسيم فتح الفمOpening of the moth :

أهتم فراعنة الدولة الحديثة على تسجيل جدران مقابرهم بالمناظر والنصوص التالية :-

١ - مناظر ونصوص كتاب ما هو موجود في العالم الأخر) إمي - دوات (بدأ تسجيل هذا الكتاب على جدران حجرة " تحتمس الأول " في عهد (أمنحتب الثالث).

٢ - المناظر التي تصور طقس فتح الفم كان من المعتقد أن طقس فتح الفم يعيد للمتوفي أستخدام إدراكاته بواسطة عمل سحري ، والمكان الذي يتم فيه الأحتفال بهذا الطقس على التماثيل كان يسمى(منزل الذهب) (مبارك، 2007، الصفحات 67-80).

وذرى الفرعون الجديد (آي) مرتدياً زي الكاهن وهو يقوم بمراسيم فتح الفم لمومياء سلفه في هيئة أوزيرية، وهناك نصوص تفصيلية لهذا الطقس القديم لفتح فم المومياء في مقبرتي (ستي الأول - وتاوسرت) ولم يكن المقصود بفتح الفم مجرد إعداد الفم لتناول الطعام والحديث وإنما أيضاً إيقاظ كل أحاسيس المتوفي فالعين ان يجب أن تفتحا على حقيقة العالم الأخر حيث يمكنهما أن تريا الألهه الحية، كما إنه من الممكن ممارسة فتح الفم على التماثيل تماماً كالمومياء الحيه فتبث فيها الحياة.

وكان الهدف من احتفالية فتح الفم استعادة حواس المتوفي كالسمع والأبصار والكلام، اي يعود إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل الموت عن طريق السحر وهي طقسة موغلة في القدم ، وكانت تؤدي على تمثال للمتوفي ، ثم صار من المعتاد منذ نهاية الأسرة الثامنة ان تستبدل المومياء الفعلية بالتمثال، فكانت المومياء توضع في تابوت مشكل على هيئة إنسان وتوضع بشكل عمودي عند مدخل المقبرة ويمسكها كاهن يرتدي قناع في صورة (إبن أوى متقمصاً شخصية الأله (أنوبيس) ثم يقوم كاهنان يعرفان بـ (سم) ، (الأبن الذي يحبه بلمس فم المومياء بأدوات مختلفة شكل بعضها بصورة (أزميل أو المنحات، وبدأ يستعيد المتوفي حواسه ورش المومياء بالماء المقدس.**

وبعد الطقوس الأولية للتطهير كان يذبح ثور أو بقرة وهو الكفارة أو ذبيحة النعش ويوزع لحم الذبيحة على المشيعين، وهذا جزء من قرابين الملك التي كان يقدمها الملك سابقا إلى البيت ثم أصبح يتولاها أقرباء المتوفي وخاصة ابنه الأكبر ويضاف لها الخبز والجعة.

خامساً: المقابر الإسلامية في العراق خلال القرن الرابع الهجري:

احتلت المقابر الإسلامية في العراق خلال القرن الرابع الهجري مكانة بارزة في الحياة الدينية والاجتماعية والعمرانية، ولا سيما في ظل ازدهار الدولة العباسية واتخاذ بغداد مركزًا سياسيًا وعلميًا للعالم الإسلامي وقد ارتبطت المقابر في تلك الفترة بمظاهر حضارية متعددة تجاوزت وظيفتها الأساسية باعتبارها أماكن لدفن الموتى، فأصبحت تضم قبور العلماء والفقهاء والزهاد وأهل التصوف وكبار رجال الدولة، كما تحولت بعض المقابر إلى مزارات يقصدها الناس للزيارة والدعاء والتبرك. وتشير المصادر التاريخية إلى انتشار المقابر في جانبي مدينة بغداد الشرقي والغربي، حيث عُرفت مقابر متعددة ارتبطت بأحياء المدينة وسكانها، وذكرت المصادر أسماء عدد من هذه المقابر وأهم الشخصيات المدفونة فيها.

وقد شهد العراق في القرن الرابع الهجري تطورًا ملحوظًا في الممارسات الجنائزية المرتبطة بالدفن والمقابر، إذ تأثرت هذه الممارسات بالعوامل الدينية والاجتماعية والفكرية السائدة آنذاك. وانتشرت ظاهرة الدفن بالقرب من المشاهد المقدسة وقبور العلماء والأولياء، انطلاقًا من الاعتقاد ببركة المكان ومكانة المدفونين فيه، كما ظهرت مقابر خاصة بالأسر والعائلات وبعض الفئات الاجتماعية، الأمر الذي يعكس الأبعاد الاجتماعية والثقافية للمقابر في المجتمع العباسي كذلك ارتبطت بعض المقابر بالحياة الصوفية والزهد، حيث فضّل بعض الزهاد والمتصوفة الدفن في مواضع اعتزالهم أو بالقرب من أماكن عبادتهم.

تقتضي ضرورة البحث الإشارة إلى أن من ترجم لهم الخطيب لم يموتوا جميعا في بغداد، فقد كان من عادة الكثير المرابطة في الثغور (ابن الأثير، 1997، صفحة 226)، سواء الثغور الشامية المتاخمة لحدود الإمبراطورية البيزنطية (ابن الأثير، 1997، صفحة 473)، أو ثغور المشرق الإسلامي المتاخمة للترك وأشار الخطيب إلى عدد من الرباطات التي كان يقصدها الكثير منهم، فقد أشار إلى عسكر مكرم، وإلى ملطيه (الحموي، 1995، صفحة 192)، وطرسوس، والسوس، والمصيصة وفي عهد الخليفة الرشيد مات عيسى بن يونس بن أبي إسحاق الهمذاني (ت ١٨١ هـ / ٧٩٧م) في أحد ثغور الشام، وفي عهد الخلفة المستعين (٢٤٨-٢٥٢هـ / ٨٦٢ - ٨٦٩م خرج علي بن الجهم بن بدر السامي سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م متوجها إلى الغزو (الصفدي، 2000، صفحة 178) فخرجت عليه وعلى من معه جماعة من كلب فقاتلهم قتالاً شديداً، ولحقه الناس في رمقه الأخير، وقد وجدت معه رقعة حين نزعت ثيابه بعد موته فيها (البغدادي، 2001، صفحة 292) [الطويل]:

يا رحمتنا للغريب في البلد النـ ازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبائه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

ولم يتوقف الأمر على الثغور، فقد غلب على كثير منهم التنقل، إما للتجارة، أو لطلب الحديث ونشر العلم، وخاصة أن الرحلة في طلب العلم شكلت مظهراً عاماً للعلماء، سواء داخل العراق أو خارجه، ونتيجة لذلك مات منهم بسر من رأى ، والكوفة، والبصرة، والموصل، وواسط، والأنبار، ومنهم من مات بمص، ودمشق، وهراة، والري، والدينور، وأصبهان، والأهواز، ونيسابور وبلخ التي مات بها خلف بن الفتح بن هاشم (ت ٣٢٨ هـ / ٩٣٩م) وهو بغدادي المولد والنشأة، انتقل من بغداد إلى بلخ، وحدث بها إلى أن مات ومرو التي مات بها أحد الرحالة في طلب الحديث، وهو أبو الحسن السلامين عبد الله بن موسى (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦م).

وكان من عادة الزهاد والعباد وقف حياتهم والعيش بمكة مجاورين طوال حياتهم، كأبي عبد الله البلخي (ت ١٩٤ هـ / ٨٠٩م) الذي حبسه الخليفة الرشيد، وأطلق من السجن بعد وفاة الرشيد، فذهب إلى مكة وأقام بها إلى أن مات (١٥٧). وأبو الحسن الصوفي (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٩م) أحد العباد الموصوفين بالزهد والورع (١٥٨)، وأبو مسلم عبد الرحمن بن محمد (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) الذي خرج في آخر عمره إلى الحجاز وأقام بمكة مجاوراً لبيت الله الحرام إلى أن مات (البغدادي، 2001، صفحة 154).

ومنهم من مات في طريق الحج، كالحسن بن زيد بن الحسن بن أبي طالب (١٦٨ هـ / ٧٨٤م) الذي مات بالثعلبية، ومنهم من مات بقيد كوكيع بن الجراح (ت ١٩٧ هـ / ١٢م) الذي كان يعد من علماء الحديث، ومنهم من مات بواقصة، ومنهم من مات بمنطقة العمق، وحمل إلى بغداد ودفن فيها، كأبي فضل المعدل (ت ٢٨٨ هـ / ٩٠٠م). ومنهم من مات يوم التروية ودفن في مكة (البغدادي، 2001، صفحة 267).

وانتشرت عادة الدفن في المنازل، فهذا الفقيه أبو سليمان الأصبهاني داوود بن علي بن خلف (ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣م دفن في منزله، وكان الأصبهاني على خلاف مع أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ / ١٥٤م)، لأنه كان يقول بخلق القرآن، فكان يقول: "أما الذي في اللوح المحفوظ فغير مخلوق، وأما الذي هو بين الناس مخلوق (البغدادي، 2001، صفحة 348).

وعندما مات أبو إسحاق الحربي (ت ٢٨٥هـ / ٨٩٨م) الذي وصف بأنه إمام مصنف عالم بكل شيء، بارع في كل علم، إضافة إلى زهده وورعه وتفرغه للعلم، دفن في بيته في شارع الأنبار كما دفن إلى جانب قبره في البيت نفسه، أبو على الحسين بن غالب المقرئ (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م) الذي كان أحد مقرئي القرآن (البغدادي، 2001، صفحة 409).

ودفن أبو العباس أحمد بن سريج (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م) أحد القضاة الشافعيين، الذي كان له ردود على المتكلمين والمخالفين، بحجرة بسويقة غالب. كما دفن في داره أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب القاضي (ت ٣١٩ هـ / ٩٣١م)، الذي كان شافعي المذهب وكان قد أغلق بابه وامتنع أن يقضي بين الناس، فكتب بعزله وأعفي وأبو بكر محمد بن الحسن النقاش (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١م) الذي كان عالماً بالقراءات والتفسير، وكان

كثير السفر والترحال، فقد انتقل إلى الكوفة والبصرة والموصل، وسافر إلى مكة ومصر والشام والجبال وبلاد خراسان وما وراء النهر، ولما عاد إلى بغداد مات فيها ودفن في داره.

ولم يكن الأمر مقتصراً على تلك الفئات، فقد دفن عدد من نقباء الطالبيين في دورهم (الماوردي، 1989، الصفحات 153-154)، ومن النماذج التي ذكرها الخطيب أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م)، الذي تولى نقابة الطالبيين في بغداد، ويصفه الخطيب بأنه كان من أهل الفضل والأدب والشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م) الذي كانت له نقابة الطالبيين في بغداد، وله تصانيف على مذاهب الشيعة.

ويجدر بنا الحديث عن المقابر المشهورة في بغداد والتي تم توزيعها في مناطق متعددة عند بناء بغداد سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م وأشهرها :

مقبرة باب حرب:

تعتبر مقبرة باب حرب أول مقابر العامة (ابن الساعي، 2014، صفحة 5)، والتي تقع خارج المدينة مما يلي طريق قطريل، وهي معروفة بأهل الصلاح والخير وقد أشار الخطيب إلى أن هذه المقبرة بقيت تسمى بمقبرة باب حرب إلى أن دفن فيها بشر بن الحارث الحافي (ت ٢٢٧هـ / ٨٤١م)، وأصبح يُقال لها مقبرة بشر الحافي، إلى أن دفن فيها أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م) (البغدادي، 2001، صفحة 443) فنسبت إليه واشتهرت به فكانت تسمى مقبرة أحمد، وقد أشار الخطيب إلى ذلك عندما ذكر وفاة عبد الله بن أحمد أبو القاسم الصيدلاني (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧م)، أحد المشايخ المعروفين بالثقة والصلاحوقال أنه دفن في مقبرة أحمد بن حنبل وكانت هذه المقبرة من أكثر المقابر التي تقصد بالزيارة والتبرك.

ودفن بهذه المقبرة من كبار العلماء ومشاهير ومشاهير الفضلاء، وأعيان الزهاد والنبلاء، ممن كان يستنزل ببركتهم، ويدفع بزيارتهم الضرر، كمنصور بن عمار بن كثير أبو السلمي، من أهل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي الذي يصفه الخطيب بالواعظ، فقد كان من أهل العبادة والكرامات، مجاب الدعوة، وكان ممن رفضوا القول بخلق القرآن وأبو الحسن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤م) أحد رواة الحديث، والذي كان يقال في جنازته، أنه من نحو من سبعين سنة.

مقبرة الخيزران:

وهي من أقدم المقابر في بغداد، وتقع بالجانب الشرقي بالقرب من سوق يحيى، في منطقة الرصافة و هي منسوبة إلى الخيزران زوجة الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ / ٧٧٤ - ٧٨٥م)، ويذكر الخطيب أن أول من دفن فيها البانوقة (ت ١٦٩ هـ / ٧٨٥م) (البغدادي، 2001، صفحة 448) ابنة الخليفة المهدي ثم الخيزران (ت ١٧٣ هـ / ٧٨٩م).

فقدت بابن دريد كل فائدة لما غدا ثالث الأحجار والترب

وكنت أبكي لفقد الجد مجتهداً فصرت أبكي لفقد الجود والأدب

كما دفن فيها أبو عبد الله المعدل محمد بن عبد الله بن دينار (ت ٣٣٨ هـ / ٩٢٠م) أحد فقهاء الحنفية المشهورين، وكان يقال عنه، أنه لم يُر في وقته لأهل الرأي أشد اجتهادا، ولا أدوم الصيام النهار وقيام الليل منه، مع صبره على الفقر وطلبه للكسب الحلال، وأكله من عمل يده، وقد دفن بالقرب من أبي حنيفة.

كما يظهر أن الذين دفنوا بمقبرة الخيزران كانوا ممن يسكنون بالجانب الشرقي الذي تقع فيه المقبرة، كأبي عيسى بكار بن أحمد بن بكار المقرئ (ت ٣٥٣هـ / ٩٦٤م) الذي كان يسكن بالجانب الشرقي في سوق يحيى، ودفن عند قبر أبي حنيفة وأبو سعيد القاضي السيرافي النحوي (ت ٣٦٨ هـ / ٩٧٨م أحد قضاة بغداد، وكان زاهدا لا يأكل إلا من كسب يده وكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا مجلس التدريس في كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرتها عشرة دراهم يكون قدر مؤونته، ثم يخرج إلى مجلسه وأبو منصور أحمد بن محمد بن الحسن المالكي (ت ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) الذي كان يسكن بالقرب من المقبرة.

مقابر قريش

تقع في الجانب الغربي من بغداد، وهي محدقة بجوانب الجامع وتحت القبة الخضراء وقد بنيت المقبرة منذ تأسيس مدينة السلام عام ١٤٥هـ / ٧٦٢م، ويبدو أن الخليفة المنصور بناها لتكون مقابر لقريش خاصة، كالعباسيين والعلويين، ويذكر الخطيب أن أول من دفن فيها جعفر الأكبر ابن أبي جعفر المنصور، الذي توفي في حياة أبيه، كما دفن فيها من الهاشميين، موسى الكاظم (ت ١٨٣ هـ / ٧٩٩م)، وكان الحسن بن إبراهيم بن علي الخلال يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت إلا سهل الله تعالى إلى ما أحب كما دفن إلى جانبه ابن موسى الكاظم محمد الجواد بن علي الرضا (ت ٢٢٠هـ / ٨٣٥م) ودفن فيها من العلويين أيضاً، يحيى بن الحسين بن زيد بن علي (٢٣٧هـ / ٨٥١م) وصلى عليه عبدالله بن هارون.

ودفن بهذه المقبرة عدد من أكابر البيت العباسي، كعيسى بن علي (ت ١٦٣هـ / ٧٧٩م) عم الخليفة السفاح (١٣٢ هـ - ١٣٦ هـ / ٧٤٩م - ٧٥٣م) والخليفة المنصور، وصلى عليه موسى بن المهدي، وقد مشى في جنازته من قصر عيسى إلى مقابر قريش (الحموي، 1995، صفحة 375)، ويُذكر أن عيسى توفي حين عسكر المهدي بالبردان يريد الشام، فرجع الخليفة المهدي من معسكره حتى دفن عيسى، ثم عاد إلى معسكره كما دفن فيها محمد الأمين (ت) ١٩٣ هـ / ٨٠٨م ابن هارون الرشيد.

سادساً: المقابر في القرن الرابع الهجري: إشكالات التملك، الاقتصاد، والتنظيم العمراني

لم تكن المقابر في القرن الرابع الهجري مجرد حيز جغرافي للدفن، بل كانت ساحة تتصارع فيها المصالح الاقتصادية، وتتشكل فيها الممارسات العمرانية، وتتقاطع فيها الفتاوى الفقهية مع الواقع الاجتماعي. تتناول هذه الدراسة في هذا المحور ثلاثة أبعاد رئيسية:

1.اقتصاديات الموت وتكلفة الجنائز :شكلت الجنازة في القرن الرابع الهجري وحدة اقتصادية متكاملة؛ إذ لم يقتصر الأمر على حفر القبر، بل ارتبط بصناعات وخدمات أوجدتها الحاجة الاجتماعية، مثل: "تجهيز الموتى"، و"صناعة الشواهد"، و"تقديم القرابين/الصدقات" وتشير المصادر إلى أن المهن المرتبطة بالمقابر (كالحفارين والقائمين على الصيانة) كانت تتأثر بالمستوى الاقتصادي للأحياء؛ فالمقابر الخاصة بـ "الطبقة المخملية" (كالتي ضمت رجال الدولة في "مقابر قريش") كانت تُجهز بأسوار، وقباب، وتُخصص لها أوقاف للصيانة، بينما كانت مقابر العامة تعتمد على "التكافل الجماعي ."

2.الجانب القضائي والنزاعات حول "حرمة الأرض :"أفرز التوسع العمراني في الحواضر الإسلامية (مثل بغداد والقيروان) نزاعاً على الأراضي المخصصة للدفن. تبرز "النوازل الفقهية" في تلك الفترة كمصدر تاريخي للوقوف على إشكالات "التعدي"؛ حيث ناقش فقهاء المالكية في إفريقية (مثل المازري وابن رشد) قضايا هدم القباب التي تُبنى في مقابر عامة لضمان استمرارية الانتفاع بالأرض، وإن هذا الجدل الفقهي حول "التحبيس" و"التجصيص" لم يكن ترفاً فكرياً، بل كان محاولة لتنظيم الفضاء العام ومنع الخصخصة غير القانونية للمرافق الجنائزية التي هي "ملك للمسلمين ."

3.التشكيل العمراني والجمالي (لغة النقوش): تطور المشهد العمراني للجنائز من "اللحد البسيط" (وفق السنة) إلى عمارة تعبيرية تعكس مكانة المتوفى وفي الوقت الذي كانت فيه النقوش اللاتينية في المغرب القديم تركز على "حوار الموتى والأحياء" وتفاصيل المهنة، نجد أن العمارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري اتجهت نحو "التجريد"؛ حيث سيطرت آيات القرآن الكريم والأدعية على الشواهد، مما يعكس تحولاً في ثقافة "الذاكرة" من التباهي الدنيوي (كما في نقوش المشرق القديم) إلى التركيز على الآخرة والبركة .

الخاتمة

خلصت "الدراسة الحالية" إلى أن المقابر في القرن الرابع الهجري لم تكن مجرد بقعة جغرافية جامدة أو مستودعاً للأجساد، بل كانت ركيزة أساسية في التخطيط العمراني للحواضر الإسلامية، ومرآة تعكس النضج الفقهي والاجتماعي للمجتمع آنذاك، وقد نجحت مؤلفات الجغرافيين والرحالة في توثيق هذا المشهد، مقدمةً مادة علمية ثرية تجاوزت الوصف الجغرافي لتصل إلى تحليل السلوك الإنساني تجاه الموت، والتحولات التي طرأت على الشعائر الجنائزية نتيجة التفاعل بين التراث الإسلامي والموروثات الحضارية السابقة في أقاليم الدولة الإسلامية.

نتائج البحث

بناءً على الاستقراء والتحليل، توصلت "الدراسة الحالية" إلى النتائج التالية:

أظهرت الدراسة أن مسميات القبر في القرن الرابع الهجري (مثل: اللحد، التربة، الجبانة، البقيع) تعكس فهماً دقيقاً ومتبايناً لمكونات الموقع الجنائزي، مما يؤكد تمايز الممارسات الجنائزية بناءً على الجغرافيا المذهبية والبيئية .

أثبتت النتائج أن توزيع المقابر في المدن الكبرى (كالقيروان وبغداد) لم يكن عشوائياً، بل خضع لمعايير إدارية وتشريعية، حيث اتخذت السلطة الحاكمة من تحبيس الأراضي للدفن وسيلة لتنظيم الفضاء العام وصون حقوق الموتى .

كشفت "الدراسة الحالية" أن الفتاوى الفقهية في تلك الحقبة (مثل آراء المازري وابن رشد) لعبت دوراً محورياً في الحد من مظاهر "التطرف العمراني" في بناء القبور، مثل تجصيصها أو البناء عليها، سعياً للمحافظة على الطابع العام للمقابر ومنع استغلالها .

أوضحت الدراسة أن الشواهد الجنائزية، رغم بساطتها في العصر الإسلامي مقارنة بنقوش المغرب القديم، ظلت تمثل أداة تواصل مع الآخرة، محولةً المقبرة من مكان للدفن إلى فضاء للتبرك والزيارة والذاكرة الاجتماعية .

التوصيات

بناءً على ما تقدم، توصي "الدراسة الحالية" بالآتي:

تدعو الدراسة إلى إجراء مزيد من البحوث التي تقارن بين "النوازل الفقهية" و"الروايات الجغرافية" لتوحيد الصورة التاريخية للمقابر، بدلاً من الاعتماد على مصدر واحد .

التوصية بضرورة إجراء مسح ميداني وأثري للشواهد المتبقية من القرن الرابع الهجري وربطها بالنصوص التي سجلها الرحالة، لتقاطع المادة المكتوبة مع المعطيات المادية .

تُشير "الدراسة الحالية" إلى الحاجة الملحة لدراسة المؤسسات الوقفية التي كانت تدير المقابر، وكيفية تمويل صيانتها، مما سيفتح آفاقاً جديدة لفهم الإدارة المالية للمرافق العامة في العصر العباسي .

ضرورة التوسع في دراسة مقابر الثغور والرباطات العسكرية في القرن الرابع الهجري، لأنها تمثل نموذجاً فريداً للمقابر المرتبطة بالجهاد والحياة المتنقلة، وهو جانب لم يحظَ بالدراسة الكافية في "الدراسة الحالية ."

المراجـــــــــــــــــــــع:

ابن الأثير .(1997) .*ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري)ت 630هـ(، الكامل في التاريخ، تحقيق :عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1417هـ / 1997م، ج7، ص 226.*

ابن عبدون .(1955) .*ابن عبدون رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥ ، ص ٢٦ .*

بن سحنون .(2000) .*بن سحنون، محمد كتاب الأجوبة تحقيق حامد العلوي، ط1، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٠٠م، ص ١٠٥ .*

Griffe . (1997). *Griffe M, Lassere J.M, Soubiran J., (1997) , Epitaphe du banquier Praecilius, Vita Latina, 146, , pp15-25.*

Gsell.S. (1922). *Gsell.S, (1922), Inscriptions Latines de l'Algérie, (=IL Alg.), ed, Paris, H. Champion.*

Lassere . (1973). *Lassere J.M, Recherches sur la chronologie des épitaphes païennes de l'Africa, in Antiquité Africaine, 7, 1973, pp7-151.*

Leveau . (1977). *Leveau Ph, (1977) Les hypogées de la rive gauche de l'oued Nsara, Antiquité Africaine , 11, pp223-229.*

Merlin. (1944). *Merlin. A, (1944), Inscriptions Latines De La Tunisie, (=IL Tunisie), Pris, Presses Universitaires de France.*

Wolff . (2000). *Wolff E, (2000), La Poésie funéraire épigraphique à Rome, Rennes, Études Anciennes, pp299-303.*

ابن الساعي .(2014). *ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان البغدادي)ت 674هـ(، المقابر المشهورة والمشاهد المزورة، تحقيق :إحسان ذنون الثامري، دار الفاروق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014م، ص 5.*

ابن منظور 1414) .هـ .(*ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ط ، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ ، ص ٣٨٨ .*

البرزلي .(2002). *البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، جه، تحقيق، محمد الحبيب الهيلة دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ٣٨٤ .*

البغدادي .(2001). *الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي)ت 463هـ(، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، تحقيق :بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1422هـ 2001 /م، ج13، ص 292.*

التسولي .(1998). *أبو الحسن التسولي، البهجة في شرح التحفة)شرح تحفة الحكام، تحقيق، ج ٢ ، ط١ ، محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ١٩٩٨م، ص ٣٦٧ .*

الحموي .(1995). *ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي)ت 626هـ(، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج1، ص 375.*

الحموي .(1995). *ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي)ت 626هـ(، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج5، ص 192.*

الدباغ .(1968). *الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج ١ ، تحقيق، إبراهيم شبوح وآخرين مكتبة الخانجي، مصر ، ١٩٦٨ م، ص ٩٩ -١٠٠ .*

الدومي .(2021). *الدومي, كريمة عبد الرؤوف محمد رحيم .(2021). المقابر الإسلامية ومجتمع إفريقية من ق2هـ/8م إلى ق5هـ/11م) Islamic cemeteries and an African Society From the second century until the fifth century AH 8/11. حولية سمنار التاريخ الاسلامى والوسيط, 9(9), 625-782. .*

الصفدي .(2000). *الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي)ت 764هـ(، الوافي بالوفيات، تحقيق :أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ 2000 /م، ج20، ص 178.*

العقباني .(1967). *العقباني ، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي المعهد الثقافي الفرنسي دمشق، ١٩٦٧ ، ص ٧٧ .*

الفارسي .(1959). *الفارسي، أبو الطاهر، مناقب محرز بن خلف، تحقيق الهادي روجيه إدريس، باريس، ١٩٥٩م، ص ١٧٤ .*

القاضي النعمان .(1986). *القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة ط ٢ ، تحقيق، فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٦ ، ص ٣١٦ .*

اللخمي .(2011). *اللخمي، التبصرة، ج ٢ ، دراسة وتحقيق أحمد عبد الكريم نجيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠١١ ، ص ٧١٢ .*

المازري .(2008). *المازري، شرح التلقين، ج ١ ، تحقيق، محمد المختار السلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٨ ، ص ٢٨٧ .*

المالكي .(1994) .المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق بشير البكوش، ج 1، ط ٢ ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ،١٩٩٤م، ص ص ١١٤، ١٤٦ .
الماوردي .(1989) .الماوردي، علي بن الحسن)ت ٤٥٠هـ /١٠٥٨م (الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق، خالد رشيد الجميلي، بغداد، ١٩٨٩م .ص ١٥٤،١٥٣ .
الوسياني .(2009) .الوسياني، السير، ج ١ ، ط١ ، تحقيق، عمر بن لقمان حمو بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان -مسقط، ٢٠٠٩ ، ص ٣٥٢ .
الونشريسي .(1981) .الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والاندلس والمغرب، ج ٢ ، تحقيق، مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص ٤٩٩ .
تشرني .(1994) .تشرني، ياروسلاف "الديانة المصرية القديمة "،)مترجم (، دار الشروق ، ١٩٩٦ ، الطبعة الأولى ، ص ١٣٤ .
شكري) .ب.ت .(شكري، محمد أدور الفن المصري القديم منذ أقدم عصوره حتى نهاية الدولة القديمة"، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ص ٦٤ .
كمال .(1977) .كمال، محرم ، تاريخ الفن المصري القديم ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٧٧ -١٩٩١ ، الطبعة الأولى ، ص ١٤٨ .
لوركر .(2000) .لوركر، مانف رد "معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة "،)مترجم (مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص ٢١٧ .
لوركر) .ب.ت .(مانف رد لوركر "معجم المعبودات والرموز موز في مصر القديمة "، مكتبة مدبولي ، .
مبارك .(2007) .مبارك، منال محمد "القيم الجمالية في التصوير الجداري بمقبرتي سيتي الأول وسن نجم " ، رسالة ماجستير ، كلية الفنون الجميلة جامعة حلوان ، ٢٠٠٧ ، صـ ٦٧ -٦٨ .
مونتيه) .ب.ت .(مونتيه، بير ، الحياه اليومية في مصر في عهد الرعامسة من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر ق.م ،)مترجم (القاهرة ، ص ٤٤٤ -٤٤٦ .